اللغة العربية
و
اشكالية التوصيل

أ.م.د. عبد الله حبيب كاظم
العراق/ جامعة القادسية/ كلية التربية
قسم اللغة العربية

اختص الخالق سبحانه وتعالى بني الإنسان باللغة، إذ انفرد الانسان من بين الكائنات المخلوقة بهذه الخصيصة وبها عُرِف، وعَرفَ بها عن نفسه وتاريخ أعماله، فهو الوحيد القادر على التعبير في خلال اللغة منطوقة ومن ثم

مكتوبة، ليحقق بذلك أعلى قدر من التواصل بين ابناء جنسه وغيرهم على اختلاف البيئات وأحوالها[1].

إن الإدراك اللغوي مبنياً على صروف الاستعمال اللغوي، يؤدي وظيفة إبلاغية، ربَّما أَنَّها تقع على طرفي نقيض، فهي قد تتسم بالسلب والإيجاب في الآن نفسه، متعلقة بمجموعة من الوظائف في حالات من النمو والتذكر والمسألة.

ولهذا لا يمكن أن ننظر الى ((مواقفنا من اللغة بمعزل عن مواقفنا من المجتمع، فالمتكلم قد يهزمه المجتمع، وتظهر هذه الهزيمة في شكل عي))[2] وهذا ما أشار إليه الجاحظ في حديثه في آلة الكلام، متخطياً حدود البلاغة والبيان. إذ فيه شيء أقرب إلى استعمال المجتمع للغة[3].

إن ما يتعلق بالإبلاغ اللغوي يتمثل في حالة التواصل التي تنتاب العربي في خلال مجتمعه، فالحقيقة ((أن العربي شغلته ملكة اللغة، وشغله الصراع مع اللغة أو الصراع مع المجتمع في شكل اللغة هناك إذن هذا الإهتمام المفرط باللغة، وما ينتج عنه من العي، وربّما يخيل الاهتمام بعنف التأثير ما لا يحبه العربي، ربما كان ما دون التأثير العنيف ضعفاً وحصراً))[4].

إن ما نادى به الجاحظ في قضيتي العي وفتنة القول[5]، قد فهمتا فهماً سطحياً، إذ تجاهل الباحثون الحياة اللغوية الحقة، وما يضطرب فيها من البلاغة في الإيصال أو التوصيل من عدمه[6]. لقد ((تجاهل الناس وطأة المنافسة الإجتماعية التي كان لها آثار غير قليلة في استعمال اللغة، ولا نكاد نتصور أن كلمة البلاغة تومئ في بعض استعمالاتها إلى إقتحام العوائق والتغلب عليها. لا نكاد نتصور العي ظاهرة مألوفة من ظواهر الإنفصال الحاد بين الفرد والمجتمع))[7].

إن اللغة العربية بوصفها ((ميداناً فسيحاً في ألفاظها وفي تراكيبها، وفي بنية مفرداتها، كانت خضماً واسعاً، ولو لا أن سلط عليها من العقل ما ضبط أصولها ورسم قواعدها لا متنع حفظها على صورتها الأدبية الرفيعة))[8]. وهذا ما تشير إليه عصور الأدب العربي منذ ما قبل الإسلام وحتى العصر

الحديث[9]. غير أن هذه الصورة الأدبية التي حفظت اللغة وأصولها، ربَّما أصابها الشيء الكثير من فقدان القدرة على الإيصال والتواصل، عند أختلف المؤدى الأدبي الشعري منه خاصة في عصور مختلفة قد تأتي بعد سقوط الدولة العباسية على يد المغول في 656هـ. ذلك يؤشره الانقطاع الذي حدَّث أو أصاب ((العلاقة الضرورية المفترضة بين الشعر والمتلقي))[10] غير أن هذا الإنقطاع له تاريخهُ، ولد مداه، وهو يشير إلى ((إختلال عملية الإبلاغ، جمالياً كان أو فكرياً، لا يكون ولا يشرع في العمل إلاّ في الثقافات التي تعيش تأزماً عجزت عن تخطيه، أو في الثقافات التي تمرُّ بلحظات تصدّع تاريخي خطير))[11].

إنَّ ما مرَّت به الثقافة العربية واللغة العربية من شرط تاريخي تمثل في الإختلاط بين اللسان العربي واللسان الأدبي بعد الفتوحات الاسلامية. قد مثل في أحد جوانبه تفجيراً للطاقات الكامنة إبداعياً وثقافياً في خلال اللغة العربية، مكنها من الإتساع في معارفها وخبراتها، غير أنَّه في جانب آخر، نقل تحدّياً حقيقياً لمنظومة اللغة وثقافتها يتمثل في مدى استطاعة الناس من الإحاطة باللغة وقوانينها، والمحافظة على منظومة تلك القوانين))[12].

يقول حازم القرطاجي في هذا الشأن في كتابة منهاج البلغاء وسراج الأدباء ((وإنما هان الشعر على الناس كل هذا الهون لعجمة ألسنتهم واختلال طباعهم فغابت عنهم اسرار الكلام وبدائعه المحركة جملة، فصرفوا النقص إلى الصنعة، والنقص بالحقيقة راجع إليهم وموجود فيهم، ولأن طرق الكلام اشتبهت عليهم أيضاً))[13].

اللغة العربية والإبلاغ التوصيلي:

يعدُّ التوصيل بوصفه نظرية لغوية تقوم على علاقة واضحة بين المرسل والمرسل إليه والرسالة، وهي تعتمد الإبلاغ الدلالي في المعنى وواضح أن اللغة العربية تمتلك قدّرة واضحة على ممارسة هذا الفعل، إذ هي شأنها شأن اللغات الأخرى، فهي وجدت مع وجود الإنسان، هي وسيلته الأولى

للإتصال بغيره من بني جنسه، معبراً ومعرفاً بطلباته ورغباته، إذ اللغة ظاهرة إجتماعية تصاحب بني البشر[14].

إن النظر الفاحص في التوصيل نظرية، يعود بها إلى جذور عدّة، فهي قد تذهب في ميادين البلاغة والنقد والإعلام والإتصال، ويبدو أن ذلك مرّده إلى الماهية البايلوجية للغة وآداءها الإجتماعي، سابق الذكر.

فالظاهرة اللغوية في اعتمادها إبلاغياً أو توصيلياً، إنّما هي ظاهرة سايكولوجية تتبعها عملية فسلجية[15]. ذلك أن الكائنات البشرية لا تعيش ((وحيدة في عالم موضوعي، ولا وحيدة في عالم الفعاليات الإجتماعية بالمفهوم الشائع، بل أنَّها تقف إلى حدّ كبير تحت رحمة اللغة المعنية التي اصبحت وسيلة التعبير لمجتمعهم. انه لوهم تماماً ان نتصور ان الانسان يتكيف للحقيقة اساساً بدون استعمال اللغة))[16]. وعلى ذلك، فإن كل نموذج حضاري وكل فعل من أفعال السلوك الاجتماعي يتضمن صراحة أو ضمناً معنى الإتصال[17].

إنه من الواضح أهمية الإبلاغ والإتصال عبر اللغة وما يتفرع عنها في ميادين البلاغة والنقد بوصفها نتاجاً أدبياً على وفق وجهتين متعاكستين الأولى ثابتة تعبر عمّا يخالج الأديب، والثانية موضوعية تتجه نحو المتلقي، فالوجهتين كلتاهما صحيحة عبر التوصيل والإبلاغ لوجهات النظر المتقابلة والمتبادلة.

وإذا ما انتقلنا إلى نافذة أخرى للإبلاغ والتوصيل أكثر تأثيراً في قطاعات المجتمع لغوياً، تلك النافذة هي الإعلام.

فالإعلام، بما يستهدف نقله من رسائل ومعلومات وعلامات يعدُّ قناة لغوية للإتصال على وفق قواعد تحفظ مهنية العمل، وتستهدف مستقبلي المادة المتنوعة لغوياً. ذلك أن ((ميدان الإعلام ميدان حيوي ظهرت الحاجة الماسة إليه بعد أن اتسعت الحياة وتعسرت فيها سبل التقارب والإتصال، فقد كان من الطبيعي ان يسعى الباحثون والمنظرون فيه ومهندسوا الإتصال إلى استحداث وسائل تؤمن الإتصال والتقارب والتفاعل بين الناس، فأشبعوا هذا الميدان بحثاً وتنظيراً، فراحوا يتحدثون عن طبيعة عملية الإتصال ومكوناتها وظروفها

وانماطهـــا معـــززين وموضـــحين ذلـــك بمخططـــات ونمـــاذج، فوضـــعوا نمـــاذج للإتصـــال الـــذاتي (اتصـــال الفـــرد مـــع نفســـه)، ونمـــاذج للإتصـــال الفـــردي، أي (الاتصـــال بـــين فـــردين) ونمـــاذج للإتصـــال الجمـــاهيري أو الجمعـــي أو العـــام، أي (الإتصال مع الجمهور).))[18].

وتأسيساً على ما تقدم يمكن القول، أن اللغة العربية بما تحمل من تراث فكري في معالجته البلاغية والنقدية ورؤية اعلامية، لم يكن ((خالياً من نظر ثاقب وفكر عميق يخترق حقائق الأشياء، ولذا فليس من مستغرب الأمور ان نجد تجلي فكرة التوصيل بمبادئها العامة فيه لا سيما في ميداني اللغة والأدب ونقده))[19].

وبهذا يتحقق التلاقي بين ما جاء به جاليسون في معالجته للعناصر الستة لنظرية التوصيل ((المرسل والرسالة والمرسل إليه، والسياق والشفرة وقناة الاتصال)) نقول يتحقق هذا التلاقي عبر التوصيل والإبلاغ في الفكر اللغوي للغة العربية، وربَّما أنَّه كان أكثر وضوحاً في العصور المتقدمة على عصرنا الراهن.

فاللغة بوصفها ظاهرة إجتماعية ((تنهض بنهضة أهلها وتضعف بضعفهم وقد تموت إذا اختفى أثر مستعمليها ولم تبق لهم باقية، ينطبق هذا على اللغة العربية وغيرها من اللغات الحية))[20] والعربية قد مرّت بمراحل من الإزدهار، إذ كانت لغة السياسة والعلم والمال في العصور الذهبية العربية قبل أن تشهد اللغات الأوربية الحياة الحديثة. فأصاب العربية تراجع مخيف انسحب إليها من تراجع الحياة العربية عامة. غير أن العربية تمتلك من المرونة والحيوية ما يجعلها قادرة في كل حال على النهوض لتقف في مصاف اللغات الحية[21].

ولتحقيق هذا النهوض لا بد من الوقوف على جملة الأسباب التي أدت وتؤدي باللغة العربية أن تكون في زاوية ضيقة من التواصل مع الآخر، ليس بسبب من عدم قدرتها على الإبلاغ وحمل الخطاب العربي بكل ما يحمل من تجليات، بل لسبب يعود إلى أهل العربية في الأصل، عندما وصلوا إلى حالة

من الإهام بإستبدال لغتهم بلغة الآخر ((إنجليزية أو فرنسية)) في الأكثر وسيلة للتوصيل والإبلاغ. وتبدو المسؤولية مشتركة بين مستخدم اللغة الإعتيادي. قد يكون متخصصاً، وبين السياسي الذي تخلى عن عربيته، فالسياسيون اتجهوا إلى أن يلقوا ((خطاباتهم ولقاءاتهم من على المنابر الدولية باللغات الأجنبية ولهذا فهم مطالبون بالكف عن ذلك، وأن ((يلتزموا باحترام لغتهم التي نصت عليها دساتيرهم حتى يحترمهم العالم، فالزعيم الذي يخاطب العالم بغير لغته الوطنية يتخلى عن هويته ويعلن تبعيته لغير أمته))[22].

لقد عاش العربي حالة من الإيهام بالنسبة لإرتباطه بجذره اللغوي في عربيته لغة القرآن الكريم، وحالة الإيهام هذه إنما تعكس الاضطراب في التصرف اتجاه اللغة العربية من ابناءها. فبعد حديث امتد لسنوات طويلة من المطالبة بإعتماد العربية لغة رسمية في المحافل الدولية ((الأمم المتحدة ومنظماتها)) أقرَّ ذلك للعرب ومن ثم الإعلان من أن يكون 18 ديسمبر يوماً عالمياً للغة العربية في اليونسكو للإحتفاء بها. لما لها من دور وإسهام في حفظ ونشر حضارة الانسان وثقافته وأنها لغة اثنين وعشرين عضواً من الدول الأعضاء في اليونسكو، فهي لغة 422 مليون عربي، وهناك مليار ونصف مليار مسلم بهم حاجة إلى استخدام العربية[23].

نقول رغم تحقق هذا الإنجاز. فأن العربي اذا ما كان في محفل دولي اشترط على نفسه من دون أن يشرط عليه الاخر. اشترط على نفسه ان يتحدث لغة اخرى غير العربية. فأي حالة من الوهم نعيشها, واي حالة من الاهمال نرتكبها اتجاه لغتنا العظيمة.

وعليه لابد من وجهة صحيحة نتجه بها نحو لغتنا العربية هذه الوجه, تحقق أعلى قدر من الابلاغ والتوصيل بيننا وبين الآخر في ثقافات مجتمعات العالم, وان لا يكون سعينا سلبيا نحو لغة الآخر, بمعنى ان كنا بحاجة إلى لغة الآخر لفهمه, لابد ان يكون هو بحاجة الى لغتنا لفهمنا. حتى يحدث نوع من التعاطي اللغوي المتبادل. ولهذا لا بد من ((الارتقاء باللغة التي هي هويتنا

ووسيلتنا للتعبير عن وجودنا وموروثنا الثقافي والابداعي والديني الذي بدونها لا وجود له))[24].

ان مجموعة من الاسباب تتظافر فيما بينها تسببت وتتسبب في ضعف اللغة العربية بوصفها مرتكزاً ثقافياً عالمياً قادراً على ولوج الحياة بصيغتها الأعم, وهذه الاسباب اجمالاً تتعلق بضعف مستوى اللغة العربية عند أهلها قبل غيرهم. وقد يتعلق بالمناهج الدراسية وطرائق تأديتها على المتعلمين أو الدارسين وضعف كفاءة الملاكات التدرسية التعليمية, لاسيما بعد انحدار المستوى العلمي للمتخرجين من الجامعات العربية في الاعم الأكثر, مع وجود المدارس الاجنبية التي تعطي الأولوية للغة الاجنبية دون اللغة العربية في بلدها الأم[25]. ولهذا يحدث الانقطاع مع العربية في إرثها الثقافي إن لغتنا العربية حتى تتخطى مجموعة الاسباب المعرقلة لابلاغها التوصيلي, وتتجاوز محنتها في ضعف المناهج ضعف كفاءة خبرات اهلها بها التراخي الاعلامي في الالتزام بعربية فصيحة في المؤدى اللغوي في الاعلام المسموع والمشاهد خاصة، وعدم ايصال النتاج العربي مترجما الى لغة الآخر, فضلا عن تناسي المسؤولية الأدبية والمعنوية التي فرضتها اليونسكو عندما عدتها لغة عالمية وخصصت الثامن عشر من ديسمبر للاِحتفاء بها. إن ذلك مسؤولية كبيرة تقع على عاتق العرب في أن يصلوا بعربيتهم وما تحمل من فكر خلاق الى أمم وشعوب العالم[26].

نقول حتى تتخطى العربية كل ذلك لابد من أن ((تصبح العربية فاعلة في محيطها, يجب اعطاءها الدور الايجابي الذي تستحقه, يجب رد الاعتبار السياسي والفكري والاجتماعي للغة العربية. تعيش اللغة العربية اليوم وضعية اغتراب بين اهلها وذويها, فماذا يمكن ان ننتظر من لغة لا يحترمها اصحابها؟ المسألة فكرية واجتماعية ولكن سياسية ايضا. اللغة العربية رغم قوتها وإمكاناتها الذاتية ضحية استعمال ضيق))[27].

يجب ان تأخذ المجامع اللغوية دورها ولا بد لها ان تصل الى المدارس والمعاهد والجامعات والمرافق الادارية والصناعية والصحفية والاعلامية. وان يرتبط هذا الوعي بالواقع الفكري والسياسي, وبكل ما يكتنف الانسان العربي[28].

إن اشكالية التوصيل في اللغة العربية ترتبط ارتباطا واضحا بالتحولات الاجتماعية والثقافية والسياسية التي يعرفها العالم العربي, وعليه لابد من أدراك الواقع العربي وما يكتنفه من تدهور. فوضع اللغة العربية في حياة الانسان العربي ينذر بكثير من القلق على مستقبل هذه اللغة فهي في موقف لا تحسد عليه, فهناك اللهجات المحلية العربية وغير العربية وهي ليست اقل ضغطاً او تزاحما مع العربية من اللغات الاجنبية لاسيما الفرنسية والانجليزية, واللغات الاجنبية بحكم الواقع الحضاري والعالم الجديد انما هي لغة العلم والتقدم الصناعي والتكنلوجي ومؤسسات العلم والتعليم الكبرى في العالم فكيف للعربية ان تصمد في وجه كل ذلك.

إذن لابد من توفر الارادة العربية الحقيقية التي تتمسك باللغة العربية قولا وفعلا ويبدأ ذلك من المواطن العربي البسيط ((الاعتيادي)) وحتى الحاكم صاحب السلطة والقرار. ولا بد من مشاريع كبرى على مستوى التعليم أولاً والمنظومة الحضارية والثقافية ثانيةً. مع صدق النوايا في الارادات.

والله الموفق

---

[1] ينظر: سيكولوجية اللغة والمرض العقلي: د. جمعة سيد يوسف، علم المعرفة: (145)، الكويت، كانون الثاني 1990م ص9.

[2] محاورات مع النثر العربي: د. مصطفى ناصف، عالم المعرفة: 218، الكويت، شباط 1997م ص17.

[3] السابق نفسه: ص 17.

[4] السابق نفسه: ص 18.

[5] ينظر: البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة انانجي/ القاهرة، ص 3-12.

[6] ينظر: محاورات مع النثر العربي: ص 18.

[7] السابق نفسه: ص18.

[8] الشعر والفكر عند العرب، سعيد عدنان، دار تموز، دمشق، 2011م، ص 41.

[9] ينظر: تاريخ اللغة والآداب العربية، شارل بلا، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط1، 1997م، ص 25-26.

[10] فتنة المتخيل (الجزء الأول) محمد لطيف اليوسفي المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ط1، 2002م، ص 62-63.

[11] السابق نفسه: ص 63.

[12] السابق نفسه: ص 65.

[13] منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، حازم القرطاجي، دار الغرب الإسلامي – بيروت، ط4، 2007م، ص 124-125.

[14] ينظر: نظرية التوصيل في النقد العربي الحديث، سحر كاظم الشجري، دار صفاء/ عمان، ط1 2001م، ص 23.

[15] ينظر: السابق نفسه: ص 22-23.

[16] البنيوية وعلم الاشارة، ترنس هوكز، ت: مجيد الماشطة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1986م، ص 28.

[17] ينظر: السابق نفسه: ص 115.

[18] نظريـــة التوصـــيل فـــي النقـــد العربـــي الحـــديث: ص 35، ويُنظـــر: الاتصـــال الجمـــاهيري، خليـــل ابـــو اصـــبع، دار الشريف، ط1، عمان، الاردن: ص 13-15.

[19] نظرية التوصيل في النقد العربي الحديث: ص 300.

[20] أســـئلة اللغـــة، اســـئلة اللســـانيات، اســـماعيلي علـــوي ووليـــد أحمـــد العنـــاني، حـــافظ الـــدار العربيـــة للعلـــوم، ناشرون ومنشورات الإختلاف، ط1، 2009م، ص 219.

[21] ينظر: السابق نفسه، ص 219.

[22] لغتنا العربية بين احتفاء العالم وإهمال أهلها، مجلة العربي ع 551 فبراير 2013م، ص 13.

[23] السابق نفسه، ص 8.

[24] السابق نفسه، ص 8.

[25] السابق نفسه، ص 9.

[26] السابق نفسه، ص 10-13.

[27] اسئلة اللغة، اسئلة اللسانيات، ص 260.

[28] اسئلة اللغة، اسئلة اللسانيات، ص 260.